الدور السياسي للمدارس
في العصرين الأيوبي والمملوكي

أ.د. محمد عثمان عبد الجليل[1]

شهدت فترة العصور الوسطي قيام دولتين من أهم الدول ذات التأثير السياسي والحضاري في العالم الإسلامي هما دولتا الأيوبيين والمماليك، اللتان حكمتا هذه المنطقة الهامة في قلب العالم العربي مدةً تقرب من ثلاثة قرون ونصف، أي: منذ سقوط الخلافة الفاطمية سنة 567هـ- 1171م, حتى الغزو العثماني للشام ومصر سنة 922هـ- 1516م. وتحتل هاتان الدولتان بالذات أهميةً بالغةً في تاريخ الأمة الإسلامية، في الشرق الأدنى أواخر العصور الوسطى، لا بسبب ما تحقق في تلك العصور، وهما الخطر الصليبي والخطر التتري، فحسب، بل أيضًا لما شهده ذلك الدور من تطورات داخلية تركت أثرًا عميقًا في صورة المجتمع وحياة الناس من ناحية، وفي نظم الحكم والإدارة من ناحية أخرى.

وإذا كانت الدولة الأيوبية قد ظهرت وليدة الخطر الصليبي الذي هدد منطقة الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجري- الحادي عشر للميلاد, واستمدت وجودها من مواجهة هذا الخطر، ومواصلة الكفاح بهدف التغلب عليه، فإن ملوك هذه الدولة من بني أيوب اضطروا إلى اتخاذ عناصر من المماليك- الترك وغير الترك- وتكوين فرقة حربية من هذه العناصر تشد أزرهم في معاركهم الداخلية ضد بعضهم البعض من ناحية، وفي صراعاتهم ضد القوى الخارجية، التي هددت كيانهم وكيان المنطقة من ناحية أخرى. ولم يلبث هؤلاء المماليك أن استأثروا

---

(1) أ. د. محمد عثمان عبد الجليل: أستاذ التاريخ الوسيط والإسلامي- وعميد كلية الآداب- جامعة بورسعيد.

(ISSN : 2536 - 9555)

بالحكم دون سادتهم من بني أيوب، وذلك حوالي منتصف القرن السابع الهجري– الثالث عشر للميلاد, وأقاموا لأنفسهم دولة في مصر والشام، استمرت في الحكم حتى الغزو العثماني للوطن العربي في أوائل القرن العاشر الهجري– السادس عشر للميلاد.

وكان للظروف الصعبة التي أحاطت بقيام الدولتين سببا في البحث عن السبل التي تمكنهما من مواجهة الصعاب التي واجهتهما وتثبيت دعائم حكمهم، حيث لم استخدام أسلوب القوة والعنف كافيا لذلك، فكان لا بد من البحث عن وسائل أخري تساعد علي ذلك، وكان من ضمنها بطبيعة الحال إنشاء المدارس(1) لما كان لها من دور مؤثر في المجتمع استطاع حكام الدولتين استخدامه استخداما جيدا لخدمة أغراضهم السياسية، وهو ما سوف يوضحه الباحث خلال السطور القادمة.

وتهتم تلك الدراسة التي تحمل عنوان "**الدور السياسي للمدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي**" بنشأة المدارس في تلك الفترة موضع البحث وما كان لها من دور سياسي استخدمه حكام الدولتين لتحقيق أغراضهم الشخصية في السيطرة علي الأمور علي البلاد وتخفيف حدة الغربة وعدم الشرعية التي كان يكنها لهم أهل البلاد.

وتكمن صعوبة تلك الدراسة في ندرة المادة المصدرية التي تناولت هذه الدراسة، فالكتابات المصدرية التي تناولت تلك الدراسة انصبت حول نشأة تلك المدارس وسبل الانفاق عليها من خلال الأوقاف التي تم وهبها إليها وطريقة البناء بما اشتملته من طرز معمارية متعددة، إلي جانب طرق التدريس المتبعة، والوظائف التي كانت موجودة بتلك المدارس.

ورغم أهمية هذا الدور وما كان له من اثر، فإنه لم يحظ بدراسة عربية شاملة، حيث تم تناوله ضمن فقرات مقتضبة داخل دراسات تتعلق بالتعليم وإنشاء

المدارس خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، ونفس الشئ بالنسبة للدراسات الأجنبية.

ومما يذكر أن الأيوبيين اقاموا دولتهم علي أنقاض الدولة الفاطمية التي تمكنت من بسط نفوذها السياسي والروحي علي مصر ما يزيد علي قرنين من الزمان من (358هـ/ 968م) إلي (565هـ/ 1169م) وبطبيعة الحال كان التعليم من الوسائل التي لجأ إليها الفاطميون في توطيد سلطانهم, ومما يذكر أيضا أنه بقدر اهتمام الفاطميين بالتعليم واتخاذ معاهد التعليم مراكز لنشر المذاهب الدينية وللدعاية للمذهب الشيعي, كان اهتمام الأيوبيين والمماليك بالتعليم، حيث وجهوا حركة التعليم نحو ما يخدم أغراضهم السياسية من لتقوية نفوذهم الداخلي من ناحية، وتفعيل سياسة الجهاد ضد الصليبين من ناحية أخري(2).

وهكذا بحلول حكم الأيوبيين ظهر عهد جديد يختلف في نظمه وسياسته عن العهد الذي سبقه وتميز بسياسة سنية أدت هذه السياسة إلي قيام الكثير من المؤسسات التعليمية والتي أخذت في التطور والنمو طوال العصر الأيوبي وجاء العصر المملوكي الذي يعد امتدادا طبيعيا للعصر الأيوبي ليجد نظاماً تعليمياً مكتمل النضج خلفه له عصر الأيوبيين.

والجدير بالذكر أن المؤسسات التعليمية التي شهدها العصرين الأيوبي والمملوكي لم تكن مزدهرة في مصر من قبل بالشكل الذي وجدت به في خلال تلك الفترة محل الدراسة.

وتشير المصادر إلي أن فكرة المدرسة النظامية أخذ بها في البداية الوزير السلجوقي نظام الملك عن مدرسة نيسابور التي قام ببنائها الاستاذ أبو اسحق. ومنذ تلك الفترة تبلورت فكرة المدرسة كمؤسسة كاملة تشتمل علي المكان المعد لإلقاء الدروس، والطلبة المتفرغين للدراسة والرواتب التي تغنيهم عن الاشتغال بطلب الدنيا، وتضمن انقطاعهم لطلب العلم مع توفير المدرسين الأكفاء المتفرغين

(ISSN : 2536 - 9555)

لتعليم الطلبة. وقد تحمس نظام الملك لمدرسته الجديدة وكان دافعه إلي ذلك محاربة الشيعة بنفس أسلوبهم، حيث أنهم اتخذوا التعليم أساسا لنشر تعاليم مذهبهم، فاتخذ نظام الملك المدرسة لمقاومة الدعوة الشيعية وتدعيم المذهب السني. ومن ثم أصبح هذا الأمر مثالا يفتدي به الأمراء والسلاطين المعاصرين والتاليين له، وعملوا علي حذوه في تبني أنشاء المدارس[3].

وعلي نفس الدرب كان الزنكيين في بلاد الشام الذين كانت نشأتهم في كنف السلطنة السلجوقية. فنور الدين كان يري في بناء المدارس وسيلة هامة وفعالة في نبذ المعتقدات الشيعية ونشر المذهب السني، الذي يعد في وجهة نظره التطبيق السليم للدين الاسلامي. وكانت أهداف نور الدين من وراء ذلك دينية وسياسية، فمن ناحية نشر المذهب السني المتعصب له، ومن ناحية أخري توطيد سلطانه وسيطرته علي البلاد الواقعة تحت سيطرته[4].

علي أية حال كان الصراع الذي دار بين كل من شاور والي الصعيد، الذي انتزع منصب الوزارة من العادل بن طلائع بن رزيك وبين أبو الأشبال ضرغام بن عامر أحد قادة الجيش الفاطمي عام 558هـ/ 1163م علي منصب الوزارة سببا في فرض الهيمنة النورية علي الأوضاع السياسية بمصر بعد جولة من الصراع أنتهت بالقضاء علي شاور في 17 ربيع الآخر عام 564هـ/ 19 يناير 1169م، وتولي أسد الدين شيركوه قائد الجيش النوري لمنصب الوزارة في عهد الخليفة العاضد اخر الخلفاء الفاطميين بمصر، وحمل لقب "الملك المنصور أمير الجيوش"[5].

ثم كان أن توفي أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه منصب الوزارة، وكان ذلك في الثاني عشر من جمادي الآخرة من نفس العام، ومن ثم وقع اختيار الخليفة العاضد علي أبن أخيه صلاح الدين ليكون خليفته في

منصب الوزارة لتبدأ صفحة جديدة شديدة الأهمية في تاريخ مصر والعالم الإسلامي(6).

رغم اختلاف المؤرخين حول نوايا صلاح الدين من الاستقلال بحكم مصر عن سيده نور الدين محمود إلا أن صلاح الدين الأيوبي كان يعمل جاهدا من أجل هذا الأمر. فقد رأي أن حالة الضعف التي يعاني منها الخليفة الفاطمي في مصر والذي أصبح نفوذه لا يتعدى القصر الذي يعيش فيه، جديرة بأن تساعده في تحقيق حلمه في إقصاء الخليفة الفاطمي والانفراد بحكم مصر بعيدا عن سيده نور الدين محمود. وقد اكتملت خطة صلاح الدين الأيوبي بوفاة الخليفة العاضد ليلة عاشوراء 567هـ/ 12 سبتمبر 1171م، وأخذ في مناورة سيده من وقت لآخر لكسب الوقت حتي يدعم تواجده ويزيد من قوة نفوذه داخل مصر(7).

وكان صلاح الدين الأيوبي يرغب في إعادة نسج النسيج الفكري والاجتماعي للمجتمع المصري لما لها من أهمية في المرحلة القادمة من الصراع علي السلطة علي مصر. وقد أيقن صلاح الدين ما للعلم وبخاصة العلوم الدينية من تأثير علي الناس، فبادر باللعب علي هذه الوتيرة من أجل جذب المؤيدين له ولأسرته في مواجهة المنافسين له، سواء كان سيده نور الدين محمود أو مناصري البيت الفاطمي، هذا إلي جانب أنه كان يطمع أيضا في قبول رضاء الخليفة العباسي صاحب الشرعية رغم حالة الضعف التي يعاني منها. ومن ثم أخذ في التفكير في كيفية القضاء علي الوجود الفاطمي في مصر سياسيا وعقائديا، غير مبالي من المخاطر والمشاكل التي من الممكن أن تواجهه من أنصار المذهب الشيعي أتباع الفاطميين.

ووجد ضالته في إنشاء المدارس التي كانت تستخدم من قبل الطبقة الحاكمة علي العلماء وعامة الشعب من أجل فرض سيطرته علي عقلية الطلاب لما يمثلونه من مستقبل ودعم له، ومن ناحية أخري يظهر بمظهر التقوي والورع

(ISSN : 2536 - 9555)

واحترام وإجلال العلماء حتي يضمن التفافهم حوله، ومن ثم يضمن كسب ود وتأييد الطبقة العريضة من الشعب، لأنه كان يعلم تماما أنه في نهاية الأمر في حكم الغريب عن مصر.

وقد تجلي هذا التأثير من خلال الوقف ومن خلال التعيينات التي تمت في المناصب التعليمية والمؤسسات الدينية ليكونوا وكلاء لهم وبوق للدعاية لهم في أنحاء القطر المصري، ومن بعده في فترات قادمة في بلاد الشام. فالطبقة المتعلمة كانت وسيلة كفيلة لتعزيز الاستراتيجية السياسية للحكومة.

علي أية حال كانت البداية مع المدرسة الناصرية التي أمر صلاح الدين ببنائها في غرة المحرم 566هـ/ 14 سبتمبر 1170م، وكان يشغل خلالها منصب الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي العاضد وخصص الدراسة فيها لتدريس فقه المذهب السني(8). وتشير المصادر التاريخية أن المراكز التعليمية في العهد الأيوبي كانت تنشأ بموجب وقفيات شخصية، وأن هذه المراكز لم تعن اهتمامها بالجانب المالي فقط، وإنما كانت مثل صك المراكز التعليمية، ومنهاجها وقانونها ونظامها الإداري، فهي تضمنت شروط الواقف وأهدافه، ولذلك اعتمد التعليم في تلك الفترة علي نظام الأوقاف، سواء من النواحي المالية، أو من النواحي الإدارية والتنظيمية، وبما أن العديد من حكام بني أيوب وخاصتهم لهم يد طولي في إنشاء عدد من المراكز التعليمية، فقد ربطوا منشآتهم التعليمية بحجج وقفية تتضمن شروطاً توائم سياستهم علي الأغلب. وحتي يضمن صلاح الدين توفير احتياجات المدرسة ودفع رواتب المدرسين، قام بوقف الصاغة وكانت تقع بالقرب من المدرسة، كما أوقف عليها أيضا أحدي القري(9).

وكانت المدرسة الثانية التي قام بإنشائها صلاح الدين المدرسة القمحية، وقد سميت بهذا الأسم لأن معلوم المدرسين والطلاب كان يفرق عليهم قمحا. وكانت تلك المدرسة تقع بجوار جامع عمرو بن العاص بالقرب من المدرسة الناصرية،

ويعود بنائها إلي منتصف شهر المحرم 566هـ/ مطلع اكتوبر 1170م، وخصصها صلاح الدين لتدريس المذهب المالكي "ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة"[10]. وتلي ذلك بناء المدرسة السيوفية عام 572هـ/ 1176م، من أجل تدريس المذهب الحنفي. والشيء الملاحظ أن بناء تلك المدارس كان يتم علي مقربة من دور العبادة، حتي يتم تحقيق المستهدف من وراء بناء تلك المدارس وهو استقطاب أهل البلاد من خلال الوازع الديني[11].

والجدير بالذكر ان جهود صلاح الدين الأيوبي في مجال بناء المدارس لم تتوقف داخل القاهرة فقط، بل امتدت خارج القاهرة أيضا، فقام ببناء مدرسة تعليمية علي ضريح المعظم شاه اثناء زيارته للاسكندرية في 17 شوال 577هـ/ 23 فبراير 1181م. وبالإضافة لما سبق ذكره من المدارس التي بناها صلاح الدين، تم بناء عدد من المدارس في الفيوم وقوص بصعيد مصر لتحقق نفس الغرض[12].

وقد حرص صلاح الدين الأيوبي علي تطبيق تلك السياسية في كل الأراضي الخاضعة للدولة الأيوبية. فعشية استرداد بيت المقدس عام 583هـ/ 1187م أصدر الأوامر ببناء العديد من المدارس، أهمها المدرسة الصلاحية، حيث كانت أهم مؤسسة تعليمية في بيت المقدس، وبلغت شأناً كبيراً في عهد صلاح الدين، والعهود التي تلته، وكانت من المدارس التي يشار إليها بالبنان، فبعد الفتح الإسلامي لبيت المقدس، جلس الملك الناصر صلاح الدين "وفاوض جلساءَه من العلماء والأكابر والأمراء والأتقياء الأخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة عند باب أسباط، وعين دار البطرك، وهو بقرب كنيسة قمامة، للرباط ووقف عليهما أوقافاً حسنة[13].

(ISSN : 2536 - 9555)

ورغبة منه في أن تكون هذه المدرس مؤسسة كبرى لنشر العلوم الدينية على أساس الفقه الشافعي، وفر لها صلاح الدين دخلاً كبيراً من الأوقاف السخية الموقوفة عليها، وقد شرط في وقفيته أن تكون أوقاف المدرسة على الفقهاء المشتغلين بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، ومن جملة الأوقاف التي أوقفها على مدرسته سوق العطارين بالقدس، وقرية سلوان، ووادي سلوان الكائن جنوب شرقي القدس(14).

من خصائص مدارس بلاد الشام في العهد الأيوبي، أن مدينه دمشق حظيت بإنشاء عدد وافر منها، ويعود ذلك إلي الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي الذي نعمت به مدينة دمشق في اغلب مراحل ذلك العهد إضافة إلي أن دمشق كانت مركزا للأيوبيين في منطقة بلاد الشام، الأمر الذي جعلها مقرا لبعض أرباب الحكم، وبالتالي موطنا لكثير من العلماء والفقهاء ومنزلا لعدد من الأغنياء والتجار، وهؤلاء شاركت جماعه منهم في إنشاء عدد كبير من المدارس في تلك المدينة أو حولها، فغدت في اغلب مراحل ذلك العهد قبلة لطالب العلم من كافة أنحاء العالم الإسلامي حينذاك، مما أدي إلي نشاط تعليمي فيها خلال تلك الفترة. وعلي نفس النهج تتبع بني أيوب نفس النهج بإنشاء المدارس في ربوع الدولة الأيوبية، وامتد هذا الأمر حتي وصل إلي اليمن(15).

وكان بني أيوب شديدي الحرص علي توفير سبل الرعاية والتشجيع لجذب اكبر عدد من مشاهير العلماء المتميزين في عصرهم. فقاموا بتوفير الرواتب والمساكن المناسبة لهم. ونتيجة لذلك أصبحت مصر مقصدا لمعظم العلماء، يأتون لها من المشرق والمغرب، حيث إن كل منهم يري في مصر البيئة الملائمة لنشر علمه. وهناك عاملان شجعا هؤلاء العلماء علي الحضور إلي مصر، فمن الناحية الدينية كانوا يرون أن واجبهم الديني يحتم عليهم إعادة نشر المذهب السني بمصر وتعريف الناس بأصول دينهم. ومن ناحية أخري كانوا يأنسون بما يلاقونه

من حسن الجزاء والرعاية من السلاطين والأمراء. ومع تعزيز الدور السياسي للمدارس وأهميته في تعزيز وضع الحكام، رأي الكثير منهم بناء العديد من المدارس في المدن الرئيسية ببلاد الشام[16].

والسبب في ذلك يعود إلي مدي ادراك السلطة الحاكمة أن الدين لم يكن بمعزل عن الحياة السياسية والاقتصادية في المجتمع المصري ولعل ما يجب الإشارة إليه زمن الأيوبيين والمماليك، فقد كان القادة الحقيقيون القدرين علي التأثير علي عامة وخواص الشعب هم علماء الإسلام متمثلين فى رجال العلم والقضاء على اختلاف مذاهبهم، فقد كان هؤلاء العلماء هم الذين يشورون لتصحيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويتصلون بالحكام، ويصطدمون معهم، وكان الشعب المصرى أكثر طاعة لعلمائه وقضاته من غيرهم من الملوك والسلاطين، فقد كان العلماء هم الزعماء والمصلحين، الذين يدافعون عن حقوق الشعب ويبصرونه بهذه الحقوق، وكانت السلطات الحاكمة تستجيب للعلماء، والفقهاء لأسباب كثيرة منها أن سلاطين الأيوبيين والمماليك كانوا يعتمدون على الفقهاء، ورجال العلم فى الدعوة إلى الجهاد ضد الأعداء، وحث الناس على البذل والعطاء قبل المعركة، كما كان هؤلاء يشتركون بأنفسهم فى الحروب للتحريض على القتال، وتبصير الجنود بمعنى الجهاد، وبث الروح المعنوية بينهم[17].

فعلي سبيل المثال ترك الإمام ابن شاس شيخ المالكية ومدرس المدرسة القمحية التدريس للجهاد في سبيل الله عندما استولي الصليبين علي دمياط في سنة 615هـ/ 1218م، والذي واصل حركة الجهاد إلي أن توفي في العام التالي[18].

ومثلما وفرت الدولة سبل الرعاية للقائمين علي العملية التعليمية، فقد قامت بنفس الدور بالنسبة للطلاب، حيث لعب نظام الوقف على المدارس في عهد

(ISSN : 2536 - 9555)

الأيوبيين دورا كبيرا في تفعيل الحياة العلمية والحركة الثقافية، إذ أن الأيوبيين بتطبيقهم هذا النظام أثبتوا حرصهم وتشجيعهم لتطوير واستمرارية الحياة العلمية، فاهتموا برعاية طلبة العلم وكفلوا لهم النفقة والكسوة والطعام والإقامة، انطلاقا من أن التفرغ للعلم والدرس وملازمة الشيوخ، لا يحصل إلا بتكفية طالبيه أمر السعي في أسباب العيش، ولعل هذه الرعاية والعناية التي حظي بها طلاب العلم في معظم فترات العهد الأيوبي كانت سببا في شيوع العلم بين عدد كبير من أفراد المجتمع وعلى الأخص الفقراء والأيتام، فكثيرا ما تهيأت أمامهم السبل لتحصيل العلم والاشتغال به دون عائق.

ومن ثم فقد قدمت الدولة العديد من الخدمات الطلابية التي كانت معظمها بالمجان. فصلاح الدين الايوبيي كان شديد العناية والاهتمام بالطلاب، بحيث كان يوفر لهم الخبز المجاني والذي يوزع عليهم يوميا. ورتب لهم المدرسين في مختلف العلوم, وهيأ لهم الرعاية الصحية, وفي هذا يقول ابن جبير ت (614هـ) "اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلي ذلك, ونصب ماريستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرهم بالنظر في مصالحهم". وفي موضع آخر يصف ابن جبير ما يقدم من امتيازات للطلاب بقوله "أن من يطلب العلم يجد الأمور المعينات وأولها فراغ البال والسكن الذي يأويه والمعلم الذي يعلمه الفن الذي يريده والأجير الذي يقوم بأحواله"[(19)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكثير من الجوانب السياسية والحضارية التي تميز بها العصر المملوكي، هي في الغالب امتداد لنفس الجوانب التي كانت متواجدة في العصر الأيوبي، أو بمعني آخر أن الدولتين تمثلان حلقتين متداخلتين في سلسلة تاريخية واحدة، وذلك باستثناء بعض أوجه الاختلاف الهامشية، وكان ذلك نتيجة لنوعية نظام الحكم في كل من الدولتين، إلي جانب الظروف الخارجية

التي أحاطت بكل منهما من ناحية أخري، وهو ما أثر علي الأحوال الداخلية للدولتين من ناحية ثالثة. ومثلما كانت الحروب الصليبية سببا في قيام الدولة الأيوبية في مصر، فان دولة المماليك كانت هي الأخرى وليدة الظروف التي ألمت بمصر بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة خلال القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

وبالإضافة لما سبق فقد واجه المماليك ظروف شديدة، تمثلت في شعورهم بعدم شرعية الحكم باعتبار أنهم مماليك تم جلبهم لخدمة بني أيوب، وقد تبدلت هذه الصور رويدا رويدا بعد انتصارهم علي التتار في موقعة عين جالوت عام 658هـ/ 1260م. وكان من الطبيعي أن يبحثوا عن وسائل تقربهم وتساعد علي تغلغل نفوذهم داخل الدولة، فاتبعوا نهج الأيوبيين في استغلال العملية التعليمية لتحقيق هذا الغرض.

ومما يذكر أن بناء المدارس شهد طفرة كبيرة في العصر المملوكي، سواء من الكم أو الكيف، فرغم الارتفاع الملحوظ في عدد المدارس التي تم بناؤها في العصر المملوكي، إلا أن ذلك لم يأت علي حساب الجودة. فالمصادر التاريخية تشير إلي روعة وأناقة المدارس التي بنيت في العصر المملوكي. ومما يذكر أن بناء المدارس لم يتوقف علي مساهمة الحكام والولاة، ولكن امتد الأمر إلي طوائف أخري[20].

ومن الملاحظ أن الدور السياسي الذي لعبته المدارس في العصر المملوكي زاد بعض الشيء عن العصر الأيوبي، فلم يقتصر الدور علي نشر مذهب أهل السنة مثلما كان الأمر في العهد الأيوبي، بل تطور وأخذ صور جديدة حسب احتياجات العصر. ويحاول الباحث جاهدا إبراز هذا الدور مع متغيرات هذا العصر.

(ISSN : 2536 - 9555)

من تلك الأسباب ما تعلق بحالة عدم الاستقرار السياسي وما يتعلق بذلك من عواقب، فعدم استقرار الحياة السياسية في عصر المماليك، غالبا ما كان يعرض السلاطين والأمراء لحوادث السجن والمصادرة، مما جعلهم يرون في الأوقاف وسيلة وملجأ يلجئون إليه عند الضرورة وضماناً لذريتهم من بعدهم وهو ما أكد عليه ابن خلدون بقوله أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم علي من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثرا من بناء المدارس والزوايا والربط, ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها أو نصيب منها[21].

وإيماناً بهذا الدور الهام للمدارس في العملية السياسية، وعملا لتحسين صور السلاطين في ذهن الشعب المصري حتي يظهروا بمظهر المتدينين أكثروا من بناء المدارس وجذب العديد من العلماء أصحاب التأثير علي العامة والخاصة للتدريس بها. وإمعانا في تحقيق هذا الدور غالبا ما يقوم المدرسون بإلقاء دروسهم بحضرة السلطان، حيث يحظي بمزيد من كلمات المدح والثناء أمام الحضور من العامة والخاصة.

كما تم استخدام المدارس أيضا في الاحتفال ببعض الأمراء في حالة إنعام السلطان علي احدهم بوظيفة أو لقب أو خلعة، كما كانت تخرج المواكب من بعض المدرسة المحببة للسلطة متجهة نحو القلعة إذا كان هناك تكريم منتظر لأحد زوار مصر مثلما حدث عندما انعم السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الملك عماد الدين صاحب حماة بالسلطنة، ويصف المؤرخ أبو الفدا هذه التشريفات بقوله "وحضر جميع ذلك إلي المدرسة المنصورية بين القصرين وقدم لي حصان كامل العدة فركبته بكرة الخميس سابع عشر المحرم الموافق للثامن والعشرين من شباط بالشعار المذكور ومشت الأمراء إلي أثناء الطريق ......"[22].

وقد تم استغلال المدارس سياسياً أيضا باستغلالها كسجن للمحبوسين احتياطيا علي ذمة التحقيق، حيث تشير المصادر إلي استخدام المدرسة الصالحية لبعض الوقت كسجن مؤقت لمن يتم القبض عليهم لحين تقديمهم للمحاكمة ليتم النظر في أمرهم إما بالحكم بالسجن أو البراءة، وبالمثل قام الأمير جمال الدين الاستادار باستغلال المدرسة الحجازية لمن يصادره، ويذكر انه "صار يحبس في المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه حتي امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم، فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس واقتدي بجمال الدين من سكن بعده من الاستادارية في داره وجعلوا هذه المدرسة سجنا"(23).

كما لعبت المدارس دورا هاما وخطيرا في الصراعات التي دارت بين المماليك من اجل السيطرة علي مقاليد الحكم في البلاد، فقد حاول أمراء المماليك استغلال الموقع الاستراتيجي لبعض المدارس لتحقيق أهدافهم السياسية. فخلال الفوضي التي شهدها القطر المصري في عهد الصالح صلاح الدين حاجي شعبان (791- 792هـ/1388- 1389م)، والصراع الذي دار بين الاتابك يلبغا الناصري ومنطاش. وعندما عجز منطاش علي مهاجمة بيت الناصري طلب من مماليكه بالتمركز داخل مدرسة السلطان حسن، والصعود للأسطح لضرب الاصطبل السلطاني الذي يتخذه الناصري مقرا له. ورغم الهجمات المتتالية فلم ينجح منطاش في السيطرة علي الاصطبل إلا عندما استخدم آلات النفط، ويصف هذا الموقف ابن تغري بردي قائلاً "واحضر الات النفط، وطلع علي المدرسة ورمي الاصطبل السلطاني، حيث هو سكن الناصري، احرق جانبا من خيمة الناصري وفرق جمعهم"(24).

وحدث أن تفاقمت الأمور في عهد السلطان فرج بن برقوق، وذلك عندما تزايد الاختلاف بين الأمراء والخاصكية عام 80هـ/ 1399م، حيث كثر نفور الخاصكية من الأمير أيتمش الذي كان يتولى نيابة السلطنة بوصية السلطان

(ISSN : 2536 - 9555)

برقوق وخاصة أن السلطان فرج مازال قاصرا، وظنوا به وبالأمراء أنهم قد مالوا إلى نائب الشام تنم الذي بدأ يعصي عن الطاعة، واتفقوا معه على إفناء المماليك بالقتل والنفي، فتخيل الأمراء منهم، واشتدت الوحشة بين الطائفتين. فلما كان ليلة الاثنين عاشر من شهر صفر أشيع من العصر ركوب العساكر للقتال، وماج الناس، وكثرت حركاتهم، فلم يدخل الليل حتى لبس أيتمش، ممن معه آلة الحرب، وملك أيتمش الصوة تجاه باب القلعة، وأصعد عدة من المقاتلة إلى عمارة الأشرف تجاه الطبلخاناه، ليرموا على من فيها ومن يقف على باب القلعة، ولم يخرج يشبك من بيته، وأخذ الأمير فارس حاجب الحجاب رأس الشارع الملاصق لباب مدرسة السلطان حسن، ليقاتل من يخرج من باب السلسلة، ودقت بها الكوسات الحربية، ولبست المماليك السلطانية، ووقعت الحروب بين الفريقين من وقت العشاء الآخرة إلى السحر، وقد نزل السلطان من القصر إلى الإصطبل، فاشتد قتال المماليك السلطانية، وثبت لهم الأمير فارس، وكاد يهزمهم لولا ما كادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن، ورميه من أعلاها إلى أن هزموه، وأحاطوا بداره، وهزموا تغري بردي وأرغون شاه، بعدما أبلى تغري بردي بلاء كثيراً، وأحاطوا بدورهما، فصار الجميع إلى أيتمش، وقد امتدت الأيدي إلى دورهم فنهبوا ما فيها، فنادي أيتمش بالقاهرة وظواهرها: من قبض مملوكاً جركسيا من المماليك السلطانية، وأحضره إلى الأمير الكبير أيتمش يأخذ عرية فحنقوا من ذلك، وفارقه من كان معه من الجراكسة، وصاروا إلى جهة السلطان، ومالوا بأجمعهم على أيتمش، فانهزم، ممن بقي معه وقت الظهر من يوم الاثنين يريدون جهة الشام، وانهزم معه من الأمراء الألوف أرغون شاه أمير مجلس، وتغري بردي أمير سلاح، وغيرهم فمروا بالخيول السلطانية في ناحية سرياقوس، فأخذوا من جيادها نحو المائة، وساروا إلى دمشق، وتجمع من المفسدين خلائق، ونهبوا مدرسة أيتمش، وحفروا قبر ولده الذي بها، وأحرقوا الربع المجاور لها من خارج باب الوزير، فلم يعمر بعد ذلك، ونهبوا جامع

أقسنقر، واستهانوا بحرمة المصاحف، ونهبوا مدرسة السلطان حسن، وأتلفوا عدة من مساكن المنهزمين، وكسروا حبس الديلم وحبس الرحبة، وأخرجوا المسجونين[25]. وكانت تلك الأحداث دافعا لأن يأخذ السلطان فرج حرصه وحذره من أهمية الدور السياسي الذي تلعبه مدرسة السلطان في عملية الصراع علي السلطة، فأمر بهدمها عام 814هـ/ 1411م.

وهكذا استعرض الباحث خلال السطور السابقة العديد من الأدوار السياسية المختلفة للمدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، وهو ما يبرز دور المدرسة كمؤسسة تعليمية علي مجري الأحداث السياسية خلال الفترة التاريخية موضع البحث، كذلك علي جميع طوائف المجتمع سواء الخواص أو العوام. كما استغل الايوبين ومن بعدهم المماليك الوقف للصرف علي العملية التعليمية من أجل تحقيق أغراضهم الشخصية في فرض السيطرة السياسية علي البلاد، خاصة وأن العملية التعليمية في القرون السابقة لتلك الفترة لم تكن علي عهد بالمدارس النظامية، وكان الأفراد في الغالب هم من يتحملون الإنفاق علي العملية التعليمية، لذلك كان من الصعب استغلال ذلك في تحقيق الأهداف السياسية.

هوامش الدراسة:

([1]) المدارس، جمع مدرسة، وهي مكان الدرس والتعليم، والمِدْرَاس والمِدْرَس الموضع الذي يُدْرَس فيه، وهي مشتق من دَرَسَ الكتاب يدْرُسًه درساً ودِراسة أي قرأه. والمقصود بالمدارس الأماكن التي بنيت بهدف نشر نوع من المعرفة تحت إشراف جهة بعينها تتولي الإنفاق عليها من ريع الأوقاف الموقوفة عليها، وتعني باختيار وتعيين المدرسين والطلاب المرتبين بها، ولمزيد من المعلومات، انظر:

المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ج1، ص280، ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف مصر، ج3، ص1360، الفيروز آبادي القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، 1986م، ص701؛

(ISSN : 2536 - 9555)

عبدالعزيز راشد عبدالكريم السنيدي، المدارس وأثرها على الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626- 858هـ/ 1229- 1454م) رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1990م، ص45.

([2]) انتهج كل من الفاطميين والأيوبيين استغلال الجانب الديني والمدارس في محاولة لجذب أهل مصر لجانبهم، فكان ذلك داعيا للاهتمام بالعملية التعليمية في إطار أيدلوجي، انظر:

علي سالم النباهين، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م، ص 141؛ فاروق احمد حيدر، التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية– جامعة عين شمس، 1992م، ص 108. ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1950م، ص 171؛ احمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م، ص41.

([3]) ابن قاضي شهبة بدر الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1970م، ص 39؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، العصر الأيوبي، دار المعارف مصر، ص154،151،50،49، سعيد عبد الفتاح عاشور، العلم بين المسجد والمدرسة، بحث منشور في كتاب: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين رقم51، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م، ص16- 18، أيمن فؤاد سيد، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث منشور في الكتاب السابق، ص92.

([4]) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب الجامعية بيروت، 2003م، جـ 10، ص 14- 15.

([5]) ابن الاثير، المصدر السابق، جـ 10، ص 6- 7.

([6]) اكتملت خطة صلاح الدين الأيوبى بالإحلال والتغيير فى مصر بوفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ليلة عاشوراء 567هـ- 12 سبتمبر 1171م. وخلال ذلك طلب صلاح الدين الأيوبى من الطواشى بهاء الدين قرقوش متولى زمام القصر، الحوط على كل ما فيه والذى وجد خزائنه خاوية من الأموال، ولكنه ملئ بالكثير من التحف والذخائر التى لا تقدر بثمن. وقد قدر عدد أهل البيت الفاطمى فى تلك الأثناء ما يقرب من مائة وثلاثين

نفساً وخمسة وسبعين طفلاً، تم نقلهم إلى دار المظفر بحارة برجوان وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، انظر:

ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله عبدالحميد التركي، دار هجر، القاهرة ، 1998م، جـ16، ص 451، ابن تغر بردي الاتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، 1992م، جـ 6، ص 18.

([7]) القلقشندي، صبح الاعشي، المطابع الأميرية، القاهرة، 1914م، جـ 3، ص 346. ابن تغر بردي، المصدر السابق، جـ 6، ص 50- 51، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، الهند، 1952م، جـ 8، القسم الأول، ص 283.

([8]) أسهم نظام الوقف علي المدارس دور هام في تفعيل العملية التعليمية في العصر الأيوبي لتدعيم حكمهم السياسي، وبالتالي فقد وجهت حصيلة أوقافهم للإنفاق علي المدارس، للمزيد من المعلومات، انظر:

القلقشندي، صبح الاعشي، جـ 3، ص 346 ابن تغر بردي، المصدر السابق، جـ 6، ص 90، محمد حلمي محمد أحمد، "الحياة العلمية في مصر والشام 521-648هـ/ 1127-1250م"، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد السابع، 1378هـ/ 1958م، ص12.

([9]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق 1270م، جـ 2، ص363؛ عبدالغني محمود عبدالعاطي، التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 68.

([10]) عبد الغني محمود عبد العاطي، المرجع السابق، ص67.

([11]) الادفوي، الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، 1966م، ص 166؛ السيوطي، حسن المحاضر في تاريخ مصر، والقاهرة، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، القاهرة، 1980م، جـ 1، ص 408.

([12]) الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، القاهرة، 2004، ص82.

([13]) لم يقتصر الوقف علي العصر الايوبي، بل امتد ليشمل كذلك العصر المملوكي، ولمزيد من المعلومات، انظر:

(ISSN : 2536 - 9555)

الاربلي، مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحمامتها، تحقيق محمد احمد نبهان، دمشق، 1917م، ص 12؛ محمد رسلان محمد نور، وقف الجوامع ودور القران، ودور الحديث النبوي الشريف في بلاد الشام في العصر الايوبي، مجلة سر من رأي، مجلد 8، العدد 30، السنة الثامنة، تموز 2012م، ص 85- 86.

(14) عبد القادر النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق عمار محمد، النهار، دمشق 2014م، ص 54- 68.

(15) عبد الغني محمود عبد العاطي، المرجع السابق، ص 86- 87.

(16) على سالم النباهين: نظام التربية الاسلامية فى عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، 1981. ص123.

(17) الذهبي، سير اعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 2001م، جـ 22، ص 99.

(18) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص 15.

(19) عبد الغني محمود عبد العاطي، المرجع السابق، ص 153- 154.

(20) محمد عثمان الخطيب، الاوقاف الاسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، (648- 923هـ/ 1250- 1517م) دراسة وثائقية، دار الكتاب الثقافية، 2013م، ص19.

(21) ابوالفدا، المختصر في اخبار البشر، القاهرة، 1335هـ، جـ 4، ص87.

(22) المقريزي، المصدر السابق، جـ 2، ص382.

(23) ابن تغر بردي الاتابكي، النجوم الزاهرة، جـ 11، ص 274- 279.

(24) الموسوعة التاريخية، اشراف الشيخ علوي بن عبدالله، موقع الدرر السنية، ص 8.

(25) عبد الغني محمود عبد العاطي، المرجع السابق، ص 191- 192.